مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-0464
المجلد1 ، العدد1، (جانفي2013) EISSN : 2600-6421

خصوصيات المتلقي وحدوده
قراءة في نماذج قرآنية

أستاذة ليلى جودي
بقسم اللغة العربية وآدابها
. جامعة الجزائر

يمثل المتلقي في القرآن الكريم نقطة البدء والمنتهى؛ من حيث إنّه يشكّل دورا خطيرا لأهميته، ويشغل حيّزا كاملا ومكتملا في هذا الخطاب الرباني، الذي هو بلاغ للناس كافة، عربهم وعجمهم، إذ لم يكن الأمر الإلهي مخصوصا بأنبيائه وأصفيائه، وإن جاء في بعض صيغه بلفظ الخصوص الذي أريد منه العموم، فهو؛ أي المتلقي، يقع في نقطة حساسة جدا من عملية التخاطب. على أساس أنّه ذات مستهدفة، تجعل من الكلام الفني كلاما جماليا، من منطلق «أنّ العمل الأدبي له قطبان، يمكن أن نطلق على أحدهما: القطب الفني والآخر الجمالي، والقطب الفني هو نص المؤلف، والقطب الجمالي هو عملية الإدراك التي يقوم بها القارئ».[1]

إنّ أولى التساؤلات التي تطرح نفسها علينا هي: إذا كان المتلقي عنصرا قارا، ومرتكزا أسا من مرتكزات عملية التخاطب، فمن هو؟ وما هي أنواعه؟ وما هو دوره؟ وما هي الحدود التي سطرت له أو رسمها لنفسه؟ وما الذي حمله على التخاطب؟ هل لأنّه أمر من الله، أم لأنّ الخطاب القرآني بلاغ تمظهرت له فيه حاجياته الجمالية؟ ...

إنّ القرآن الكريم في كلّ آية من آياته يطرح بقوة، وبشكل مباشر وغير مباشر، قضية المتلقي، ومدى تفاعله مع المتكلم والخطاب. وهي قضية تقتضي معرفة نوع هذا التفاعل، أ تواصلي هو أم تأويلي أم جمالي؟ كما سنوضح ذلك لاحقا. كذلك فقد حظي مصطلح المتلقي في أغلب الدراسات بعناية خاصة، إذ استقطب جل اهتمامات الدارسين، عندما نظروا إلى مدى تقبل القارئ المستمع للنص، وأيضا مدى شعوره بالأريحيّة، واهتزازه وطربه، أو ملله ومجّه

المنارة للاستشارات

إياه ونفوره منه، وخاصة في طرحهم لإشكالية اللفظ والمعنى التي لم تكن تعنى بالنص فحسب وإنّما بالمتلقي كذلك. وعندما نظروا . أيضا . إلى مقدار رضاه عن ائتلاف اللفظ مع المعنى، وكذا تشاكلهما وانسجامهما، وإن كانت دراسة الإرسال والتلقي عندهم ذات طابع معياري بارز، حيث انصرفت هذه الدراسة مباشرة إلى الأثر.[2] فهو . أي المتلقي . يسهم في فرض البنية التي يجب أن يكون عليها القول، وهو الذي يدرك جمال الكلام، ويعبّر عن مواطن الحسن فيه بقيم بلاغية تضبط ذاك الإدراك، وتلك الأحاسيس،[3] ولا سيما أنّ «العلاقة بين الأثر الفني وقارئه علاقة تتميز بمظهر مضاعف: جانب منه جمالي صميم، وجانب تاريخي ومتسلسل. وذلك أنّ تلقي الأثر من طرف قرائه الأوائل، يتضمن من جهة حكم قيمة جمالية، يستند مرجعيا إلى آثار مقروءة في السابق، ثم إنّ هذا التلقي المبدئي يستطيع من جهة أخرى أن يتطور ويغتني من جيل إلى جيل، ليكون عبر التاريخ سلسلة من التلقيات، هي التي تحدد الأهمية التاريخية للأثر، وتبيّن مكانته ضمن التراتب الجمالي أو الفني».[4]

والحق أنّ هذا المتلقي كان مهيئا ليكون حِلاًّ بهذا الخطاب، يتلقاه بطريقة أو أخرى. ولمّا كان القرآن خطاب لسان وبيان، وكان العرب هم أفصح الأمم قاطبة، فقد كانوا أوّل متلق له؛ إذ بلّغ الله . عزّ وجلّ . كلامه بشفرة يتفق نظامها ويشترك في بعض خصوصياته ونسقه مع كلام البشر، حتى يتم تداول الكلام بصورة تامة، وبيسر، ممّا يتيح لهم استقبال الخطاب وتحليله، أو تبادل التخاطب بسهولة. فإذا «كان القوم في قبيلة واحدة، وفي أرض واحدة، فإنّ خواطرهم تقع متقاربة، كما أنّ أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة»،[5] ولذلك بدأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبليغه في نطاق محدود؛ فلم يظهر دعوته إلا إلى أقرب الناس إليه، لمدة ثلاث سنين. يقول تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ سورة الشعراء الآية 214، ثم قام يبلّغ كلام ربّه، يصدع بأمره، ويدعو إلى عبادة الله الأحد الصمد، القاصي والداني، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، والحر والعبد، والأسود والأحمر والعربي والعجمي[6]...

المنارة للاستشارات

إنّ صورة المتلقي لن تتضح ما لم نحدد نوعه ودوره في الخطاب، ومن هنا كان دوره بالغ الأهمية، يحتاج إلى خصوصيات تجعله أهلا لتقبّل الخطاب وأدائه على أكمل وجه. وليس غريبا أن نجد خطابا كالقرآن الكريم يستلزم حضور عدد غير محصور من المتلقين الذين توجّب حضورهم في قلب عملية التخاطب، وفقا لتصنيف دقيق يقوم على جملة من الضوابط التي ينبغي أن تتوفر في كل صنف، طبقا للصفة التي اتصفوا بها، والدور الذي أسند إليهم، حيث حرص القرآن على التمييز بين أصناف المتلقين دون إقصاء لأيّ صنف.

ولئن كان هذا الخطاب بلاغا للناس كافة، فإنّه يشير إلى أنّه نص مفتوح، غير أنّه يتطلب نوعا مخصوصا من المتلقين؛ إذ لا يمكن لأي متلق أن ينفلت من الدّور المحدّد الذي أوكل إليه، أو أن يستخدمه كما يريد. يقول إيكو: «لا تستطيع استخدام النص [المفتوح] كما تشاء، وإنّما كما يشاء النص لك أن تستخدمه، فالنص المفتوح، مهما كان مفتوحا، لا يقبل أيّ تأويل».[7]

لقد تجلت فاعلية التخاطب في اشتمالها على جميع صنوف المتلقين من مستهدف إلى فطري، ومنهما إلى نموذجي، أو إلى عادي، أو إلى سلبي، أو إلى إيجابي، أو إلى مضمر، أو إلى ظاهر... ومن ثمّة فقد تتسلسل في حلقة مكتملة لتشكل لنا صنفين من المتلقين صنف مؤمن وآخر كافر.

فهذا العدد الهائل من المتلقين جعل التخاطب في الخطاب الرباني نديّا، لا يمكن له أن يحيا ويخلد بمعزل عن هؤلاء جميعا، ثم إنّ انقسام المتلقين إلى هذه الصنوف، كانقسام الخطاب إلى أجزاء وأحزاب وأنصاف وأرباع يتمم بعضها بعضا. وانقسامه إلى سور وآيات وكلمات وحروف تسوق بعضها بعضا، وانقسامه إلى عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات مكملة بعضها بعضا، فكذلك أصناف المتلقين على اختلافهم وتنوّعهم وتعدّد صفاتهم وتباينها، معززة لأواصر التخاطب مفعّلة له.

ومن هذه الأصناف نجد على سبيل المثال لا الحصر المتلقي المستهدف الذي هو عنصر دائم الحضور في الخطاب، بناء على جملة من المعايير منها:

المنارة للاستشارات

. أنّ التخاطب اللساني حدث، يشترط وجود طرف مقابل أو أكثر يتلقى الخطاب؛ أي وجود عنصر مستهدف يحقق الخطاب، كقوله عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ سورة الأنعام الآية 151.

. أنّ كثيرا من الآيات جاءت بلفظ الخصوص المراد به العموم، كقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ سورة العلق . الآية1، ووجه الاستدلال في الآية، هو أنّ حكم وجوب القراءة على الرسول . صلى الله عليه وسلم . ليس ضمن الأحكام الخاصة به وحده، وإنّما يتعدى هذا الوجوب إلى الناس جميعا،* وما يؤكّد هذا أنّه عزّ وجلّ لم يخص الرسول . عليه الصلاة والسلام . دون غيره بالقراءة، فلم يقل يا محمد أو يا رسول الله اقرأ. وفي قوله تعالى: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ**﴾ سورة المزمل الآية 20 يتضح أنّ دلالة وجوب القراءة، بالنسبة إلى الناس كافة، صريحة وقاطعة. وكذلك الشأن في قوله سبحانه تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ سورة ص الآية29، خاصة بعد دخول لام الأمر على الفعل المضارع "لِيَدَّبَّرُوا" و"لِيَتَذَكَّرَ" المجزوم بها الذي أكّد المعنى وزاده قوة.

. أنّ كثيرا من الآيات جاءت بلفظ العموم، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ سورة الأعراف الآية204، وقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾ سورة الأحزاب الآية 41.

. مجيء أسماء كثير من السور بصيغة الجمع، مثل"سورة المؤمنون"، و"الأنبياء"، و"الصافات"، و"الشعراء"، و"المنافقون"، و"سورة المطففين"، و"الزمر"، و"الأحزاب"، و"الجن"، و"الكافرون"، و"الناس"... فهل تسمية هذه السور بصيغة الجمع كذكره . عزّ وجل . لها في متن السور؟ ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ سورة المؤمنون الآية1، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا**

المنارة للاستشارات

الْكَافِرُونَ﴾ سورة الكافرون. الآية 1، وقوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ سورة المنافقون الآية 1، وكلّها ألفاظ دالة على أنّ هذا الخطاب للعموم.

الواضح أنّ مثل هذه السور إنّما جاءت كذلك من أجل التخصيص الدال على بالغ أهمية هؤلاء المرسَلين جميعا، بل إنّ تسمية بعض السور بأسماء بعض الأنبياء والرسل كيونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، وطه، ويس، ومحمد، ونوح... دليل على أنّها لا تمثّلهم هم فحسب، وإنّما تمثّل أقوامهم أيضا؛ فقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ سورة نوح الآية 1، وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ سورة الأحقاف الآية 21، وقوله تعالى على سبيل المثال لا الحصر: ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ سورة الأعراف الآية 65... فهذه الآيات بلاغ من الله دال على رسله وأنبيائه ويدخل في عمومه جميع الأمم.

. ورود العديد من الآيات بصيغ الماضي والمضارع والأمر كقوله عز وجل: ﴿**قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾ سورة الذاريات الآية 30، وقوله سبحانه: ﴿**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ سورة الأحزاب الآية 4، وقوله تعالى: ﴿**وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾ سورة النساء الآية 63، وقوله كذلك: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ سورة البقرة الآية 131... وهي صيغ دالة على أنّ فعل التخاطب حدث يعمل على تحيين الخطاب وتفعيله؛ وذلك بدمج آفاق الماضي بآفاق الحاضر، مما يجعل العمل المقروء وفيا لتاريخه، ومسهما في الحاضر، ومضيئا للمستقبل؛[8] وهذا يعني أنّ القرآن خطاب متفرّد، تمكّن من مخاطبة الناس فرادى وجماعات، في أزمنة عديدة،

المنارة للاستشارات

وبالتالي فكلّ متلق . مهما نأى أو قرب من زمن نزول الخطاب . يعد حاضرا ومعنيا، يقع عليه من أحكام وشرائع ما وقع على غيره من السابقين.

. ترتيب أوامره ونواهيه من الأدنى إلى الأعلى، مراعاة لطابعه العام القائم على بث التعاليم ونشرها، وفق تباين استعدادات الناس وتفاوتها؛ ولأنّ «القارئ هو الهدف المختار بوعي من طرف المؤلف، فالإجراء الأسلوبي مؤلف بطريقة لا يمكن معها للقارئ أن يمر بجانبه، ولا أن يقرأ أيضا دون أن يسوقه إلى ما هو جوهري»،[9] ولا أدل على ذلك من أنّه سبحانه وتعالى أمر بالقراءة أولا، فالاستماع والإنصات؛ فقال: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ سورة الأعراف الآية 204، ثم أمر بالتدبر والتفكر؛ فقال: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ سورة محمد الآية 24، قال: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ سورة ص الآية 29. كما حرّم الخمر تدريجيا؛ فقال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ سورة البقرة 219، ثم قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ*إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ**﴾ سورة المائدة الآيتان 90-91. وقدّم الترغيب على الترهيب، والتبشير على الإنذار، والوعد قبل الوعيد، واللين قبل الغلظة. فقال: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ سورة المائدة الآية 19، لما في ذلك من وقع في النفوس، وحتى لا ينفضّ الناس من حول الخطاب، ولما في هذه التراتبية من تهيئة للمتلقين، ثم شدٌّ لا يقدرون بعده على ترك الآية أو السورة إلا بعد استكمال مدلولها، فالذي يقرأ ﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا*وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا**

المنارة للاستشارات

كَانَ غَرَامًا*إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا*وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا*وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ آثَامًا*يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا*إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا*وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا*وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا*وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا*وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ سورة الفرقان الآيات من 64 إلى 74، يعزم على المضي في القراءة ليعرف، بعد ذلك كلّه، ما جزاء من اتّصف من عباد الله المؤمنين بمثل هذه الصفات الجميلة، والأقوال الطيّبة الحسنة، والأفعال الجليلة، ليصل إلى ما يطمئن به قلبه، وتستبشر له نفسه؛ إنّه الأجر المرجو الذي نجده في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا*خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ سورة الفرقان الآيتان 75- 76.

. أنّ آيات كثيرة خاطبت أشخاصا لم يذكروا بصريح الاسم وإنّما كأعلام مبهمة، لم تتضح معالمها إلا عند العارفين بأسباب النزول، والوقّافين عند كلام الله، فكانت بمنزلة الآيات الموجّهة إلى كل متلق بوصفه قارئا أو سامعا أو مبلّغا... مؤمنا كان كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ سورة غافر الآية 30، وقد تكلمت الآية عن مؤمن صالح من آل فرعون، أو منافقا كان، كعبد الله بن أبي سلول مثل قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ*وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ سورة التوبة الآيتان 67- 68، أو كافرا كان كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ سورة الكافرون الآية 1، الذي نزل في العاص بن وائل، والوليد بن

المنارة للاستشارات

المغيرة، وأمية بن خلف، والأسود بن عبد المطلب، كما نزل في غيرهم ممن عاصرهم أو جاء بعدهم وسار على دربهم.

إذا على كل متلق أن يعي أنه المستهدف الرئيس، سواء تلقى الخطاب بصورة مباشرة أم غير مباشرة، إذ لابد له «أن يقدّر أنّه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرا أو نهيا قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أنّ السمر غير مقصود، وإنّما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعفيه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي . صلى الله عليه وسلم . وأمته»،[10] إذ لكلّ فئة من هذه الفئات خطاب واحد ولكن بنياته ووظائفه متنوعة، ومن ثمة فإذا كان الخطاب للناس كافة فإنّ المتلقي . أيا كان مبلغا أو قارئا أو مستمعا أو مخاطبا... . مستهدف بالدرجة الأولى.

. أنّ الخطاب القرآني مكتمل تام، غير أنّ التخاطب فيه لن يتحقق ولن يكتمل ما لم يتوفر على متلق، وما يؤكّد هذا قوله . عز من قائل : ﴿**أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾ سورة الدخان الآية 17، والمعنى أدّوا إليّ سمعكم حتى أبلّغكم رسالة ربي، ممّا يستوجب طرفا آخر يتلقى الخطاب، وبناء عليه فإنّ التخاطب غير ممكن إلا انطلاقا من الاستعمال الإنساني للخطاب.[11]

وإذا جئنا إلى نمط آخر من المتلقين نجد المتلقي الفطري الذي قد يكون . أولا . قارئا فطريا، ذا سريرة نقية ونفس سوية، قادرا على تلقي الخطاب وقبوله قبولا حسنا، وهذا شأن الأنبياء والرسل . عليهم السلام . ومن سار على هديهم كما جاء في قوله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ سورة الفتح الآية 4، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ سورة البقرة الآية 285، أو يكون من الأعراب الذين لم تفسد ألسنتهم، بل حافظوا على نقائهم وصفائهم،

المنارة للاستشارات

ونخص بالذكر هنا المؤمنين بالله واليوم الآخر من منطلق قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ سورة التوبة الآية 99.

وقد يكون . ثانيا . قارئا فطريا، غير أنّ فطرته شوّهت بما اكتسبت من جحود، وتعنّت، وعناد، واستكبار في الأرض، ومكر السيئ، ليس غير، ﴿**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**﴾ سورة فاطر الآية 49، وما يؤيّد هذا قول ربّ العزّة في محكم تنزيله: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ سورة البقرة الآية 170، لأنّ الناس ملزمون باتباع دين الله* الذي خلقوا له. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ*فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ نَظَرَ*ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ*ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ*إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ**﴾ سورة المدثر الآيات من 18 إلى 25. في هذه الحال تتكدر سريرته، وتسوء نفسه، وبالتالي يكون غير قادر على تلقي الخطاب، وإدراك كنهه كما يبدو ظاهريا، غير أنّه كان يخفي وراء عناده وعيا كبيرا بما ورد في الخطاب فيزداد الأول؛ أي القارئ الفطري المؤمن، قربا من الخطاب، ويزداد الآخر؛ أي القارئ الفطري الكافر، بعدا عنه. وهذا حال الوليد بن المغيرة** الذي لم يفسده التحيز الأدبي المكتسب بالمهارات الرفيعة والتعصب العلمي؛ فمثله وغيره ممن أقرّوا بإعجازه، واعترفوا بعجزهم؛ فقالوا: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**﴾ سورة المؤمنون الآية 24، وقالوا: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ**﴾ سورة ص الآية 7، يجب أن يكونوا هم أصحاب القول الفصل الذين يقررون أسس التفوق؛[12] لأنهم كانوا متمرسين بفنون القول إلى أبعد حد، عارفين بالفروق الدقيقة بين نص إبداعي وآخر، بناء على ما تراكم لديهم من معارف تزودوا بها في وقت سابق، فأكسبتهم خبرة. ولأنّهم كانوا عرب الألسن، فقد استغنوا عن السؤال عن معاني الخطاب، كما استغنوا بعلمهم به عمّا فيه

المنارة للاستشارات

ممّا في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص،[13] فكان منهم من سُحِر وفُتِن وأقبل وآمن وازداد إيمانا ويقينا، وكان منهم من سُحر ففَتَن وأعرض وكفر وازداد جحودا ونفورا، ولا أدلّ على ذلك من خروج أبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ليلة، ليستمعوا من رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كلّ منهم مجلسا يستمع فيه، وكلّ منهم لا يعلم بمكان صاحبه. وكان محمد . صلى الله عليه وسلم . يقوم الليل إلا قليلا، يرتل القرآن في هدوء وسكينة، ويردّد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه وفؤاده، حتى إذا طلع الفجر تفرّق المستمعون عائدين إلى منازلهم، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ولأضعف ذلك من أمركم، ونصر محمدا عليكم، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثانية، عاد كلّ واحد منهم إلى مجلسه، في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس، كانت رجلاه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعا؛ ليقضي ليله حيث قضاه أمس، وليستمع إلى الرسول محمد . صلى الله عليه وسلم . يتلو كتاب ربه، وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد . صلى الله عليه وسلم . من ضعف تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم،[14] ولأنهم يتأثرون فقد كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم، خاصة وأنهم يدركون أثر الإيقاع السليم في نفوسهم وقيمة الكلام الصريح والفهم الصحيح وهؤلاء من الصنف الذين ذكرهم التوحيدي في إمتاعه قائلا «وصنف هم الهمج الرعاع الذين إن قلت: "لا عقول لهم" كنت صادقا، وإن قلت: "لهم أشياء شبيهة بالعقول" كنت صادقا».[15] ولكن كيف نفسر أنّ بعض المتلقين يجمعون بين الإعجاب بالخطاب والذهول وبين الرفض والإدبار في آن واحد أو بين إظهار الإيمان وإضمار الكفر؟

المنارة للاستشارات

إنّ الذي يحاول أن يتقصّى ما ورد في الخطاب، في هذه النقطة تحديدا، يجد أنّ المسألة متعلقة بنوع من اللاتمازج الناشئ عن اجتماع جلّ عوامل الرفض؛ من تعنت ونكران وجحود وجبلة فاسدة ... وقد حصلت كلّها في نظامه الفكري المختل، والأمر هنا متعلق بالمتلقي الذي بموجبه حكَم على الخطاب وقيّمه، حيث إنّه فكّر ثمّ قدّر، وحينما يفعل ذلك يكون قد ربط التخاطب بأرقى مستوياته، ثم بتَره في مستوى آخر، وفي هذا دلالة على كبره وعتوه وخوفه على العادات والتقاليد وضياع دين آبائه المزعوم، لقد غلّق باب الهداية عليه؛ لأنّه غير مقتنع بأنّ القرآن جاء من الرسول محمّد . صلى الله عليه وسلم .، ثمّ إنّه نسي الفطرة التي كان عليها.

غير أن جميع هؤلاء . سواء المتلقي سليم الفطرة أو مشوه الفطرة . عانوا توترا رهيبا، خيّب توقّعهم وخلق "مسافة جمالية" حددت ردود فعل المتلقي إزاء الخطاب، ومن بين هذه الردود أن يناله الخطاب بنصيب من الرضا والارتياح؛ ويحدث هذا عندما يلج المتلقي عالم الخطاب، فيجد فيه انسجاما مع أفق انتظاره. وأفق الانتظار يتجلى هنا في تماشي أحكام الشريعة مثلا مع النفس السوية، فلا يعقل أن نجد شخصا سويا يرغب في النصوص التي تخالف الطبيعة البشرية وتدعوه إلى التهلكة. وهنا تتحقق فاعلية الآية في قوله عزّ جل: ﴿**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا**﴾ سورة الجن الآية 13، وقوله: ﴿**قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ سورة الأحقاف الآية 30، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ سورة النور الآية 53.. وغيرها من الآيات التي هي صميمة في الموضوع.

وقد يحسّ بالخيبة؛ لأنّه يحاول عبثا أن يبني قراءته للخطاب من خلال شروط مرسومة سلفا، فيحاول أن يسقطها عليه غير أنّها تعود عليه بالخسران المبين، فلا يبقى له إلا أن يتأقلم مع الخطاب الجديد الوافد إليه، فتكون

المنارة للاستشارات

النتيجة أن يغيّر من نفسه وقراءته ورؤيته بما يتناسب والخطاب، ليجد أنّ المسافة الجمالية التي سطرها أو حددها أخذت في الاتساع الجميل الذي، وإن باعد بين الكلام الذي اعتاد عليه والكلام الجديد، فإنّه أكّد قيمته الفنية وكشف عن مزيد من أبعاده الجمالية؛ ذلك أنّ «ذاتية القارئ بقدر ما هي من إنتاج القراءة وملكة النص، فإنّها حاملة للتوقعات التي من خلالها يدنو القارئ من النص ويتلقاه».[16]

وحتى لا ننقض ما حاولنا أن نؤصل له ولا نتجاوز ما حددنا، فإنّ هذه الدراسة متعلقة هنا بالخطاب من حيث قيمته الفنية والجمالية اللتان لا تكتملان من دون البعد الدلالي المحدد لدور الخطاب وقد نجع في المتلقي؛ ممّا يعني أن المتلقي، أيا كان صنفه، هو على استعداد مسبق لأي نوع من التلقي، عن طريق بعض الملامح الصريحة والضمنية التي تقتضيها طبيعته وحالته، على اعتبار أنّ إدراك البعد الوظيفي للجمالية يتمّ إمّا بالتلفظ وبالسمع وبالبصر خاصة، وبذلك يكون ظاهرا صريحا. وإمّا يتمّ إدراكه بالعقول والقلوب التي تبصر، فيكون ضمنيا خفيا. ونحن هنا نؤكّد ما ذهب إليه آ. أي. ريتشاردز «إنّ العمل الذي يعجب كل الناس من كل الدرجات يعدّ بسبب ذلك أعظم وأكثر قيمة من العمل الذي يروق للبعض فقط... العمل واسع الجاذبية ينبغي أن يكون بالضرورة أعظم وأكثر إعجابا بحد ذاته من عمل يروق فقط للقادرين على التمييز بدقة... وهكذا يبدو أنّه يلمس أمرا جوهريا وأساسيا في الطبيعة البشرية».[17] ويبقى الخطاب القرآني البلاغ الوحيد الذي تمثّل فنّ التخاطب الراقي، إذ تمكّن في نفوس الكافرين والمنافقين كما تمكّن في نفوس المؤمنين، غير أنّ أولئك رفضوا وجحدوا، وهؤلاء أقبلوا وأذعنوا.

وأما إذا ما بحثنا عن نوع آخر من المتلقين نجد المتلقي النموذجي الذي نحسبه من أبرز الأصناف لتحديد مفهوم المتلقي وضبط دوره؛ ذلك أنّ طبيعته . من حيث هو عضو مشارك في الخطاب ومتمثل له . تتطلب منه تفاعلا على قدر الأمانة التي أهلّه الله بها ليحمل مسؤوليتها، فقال: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا**

المنارة للاستشارات

الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ سورة النور الآية 54. وعن الرسول . صلى الله عليه وسلم . قال: "يا معاشر قراء القرآن اتقوا الله . جل جلاله . في ما حمّلكم من كتابه، فإنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون، إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأمّا أنتم فمسؤولون عمّا حمّلتم من كتاب الله وسنتي".[18] فما إن يقوم هذا الصنف من المتلقي بتمثّل الخطاب حتى يتحول الاتصال إلى تواصل، وهكذا يتجاوز المتلقي البحث عن مدلول الخطاب إلى البحث عن الكيفية التي بها يدلّ، من منطلق أنّ الإسلام منهج إلهي وضعه ربّ الناس للناس، وبهذا فهو لا يلغي دور الإنسان أمام هذا المنهج، ولا ينحّيه من طريقه، ولا يحكم عليه بالسلبية المطلقة اتجاهه،[19] بل إنّ الأمر هنا يتطلب إفساح المجال أمام الفكر ليَفهم ويُفهم، فيصبح دوره المحور الرئيس الذي يدور حوله الخطاب، وفق شروط يجب أن لا يتعداها؛ أي أن يحرص على تهذيب دوره، حسب العناصر المتاحة في الخطاب، ويمتثل لما جاء فيه. فهو القائل سبحانه وتعالى: **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾** سورة آل عمران الآية 7 والقائل عزّوجل: **﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** سورة النساء الآية 167. فلكي يكون التخاطب بين المتلقي وبين الخطاب ناجحا يجب أن يضبط نشاط المتلقي النموذجي بطريقة ما من قبل الخطاب، ويجب عليه؛ أي المتلقي النموذجي، أن يُقبل على الخطاب من دون تعصب أو انغلاق بشكل يتيح للخطاب أن يتواصل معه بإيجابية،[20] وبذلك تكون استراتيجية التخاطب الجهاز المستقطب أو اللاقط الذي يوجّه نوعا مخصوصا من المتلقي، ويقوده إلى تمثل الخطاب وتمثل ما فيه، وما يوضح هذا ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** سورة القلم الآية 4، وقوله: **﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ**

المنارة للاستشارات

مُعْرِضُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ*فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ*أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ*الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ سورة المؤمنون الآيات من 1 إلى 11.

والذي يستقرئ هذه الآيات يجد أنّ هذا النوع من المتلقي خاصة يصل إلى درجة عالية جدا من الوعي في استيعاب كنه الخطاب ومراده قولا وعملا، على أن يتمّ هذا التخاطب بطرق متنوعة تجلّي أساليبه، وتساعد على ترسيخ أبعاد الرسالة السامية.

إنّ الوضوح البيّن عند الرسول . صلى الله عليه وسلم . وكذا عند المؤمنين الراسخين في العلم في فهم محتوى الخطاب، وإنّ هذا العمل المنجز بعد التلقي سماعا أو قراءة من خلال قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ سورة آل عمران الآية 193، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ سورة القيامة الآية 18، وكذا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الحج الآية 77، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سورة التوبة الآية 105، إلى أن جعل هؤلاء يقرون ويقولون: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ سورة البقرة الآية 285، أقول فهذا الوضوح وهذا العمل المنجز كان نتيجة حتمية للتخاطب الناجح بين الخطاب والمتلقي؛ ممّا يؤكّد أنّ المتلقي النموذجي طرف فاعل، يسهم في تفعيل التخاطب، بتحقيق الخطاب قولا وعملا، بوساطة الفهم والإفهام، وبالتالي

المنارة للاستشارات

فالأعمال المنجزة هي نتيجة تفاعل وتجاوب تمّ بين معطيات الاتصال وإجراءاته المستخرجة من الخطاب من معان وتأويلات وتوضيحات.

إذا فالخطاب أمر إلهي يجب تطبيقه، على أساس أنّ كلّ خطاب يتطلّب متلق، وكلّ متلق لا يمكنه إلا أن يتواصل، وأيضا على أساس أنّ كلّ تواصل يتطلب تبادلا في شكل تناظر واستكمال؛[21] أي انجاز بعض أنماط الأفعال التي هي جزء من العمل، فحينما نقرأ قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ سورة الأنعام الآية 72، وقوله: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ سورة البقرة الآية 43.. وغيرها من الآيات التي يأمر من خلالها الله . عزّوجلّ . عباده تأدية الصلاة، فإنا نجده يسكت عن كيفية تأديتها بحقّها وإقامتها، والحقّ أنّه سبحانه أمر بالسعي إليها في خشوع والحفاظ عليها في وقتها بعد التهيؤ لها فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ سورة المائدة الآية 6، على اعتبار أنّ الطهارة هي مفتاح الصلاة، بل لا تقبل صلاة بغيرها؛ لذلك شرّع الله الوضوء، وحدّد فرائضه، ورخّص التيمم للمعذور، ثمّ أمر بأداء هذه الفريضة وذكر عظيم شأنها والغرض من إقامتها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ سورة العنكبوت الآية 45، وقال: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ سورة طه الآية 14، أيضا فقد أمر قائلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ سورة الجمعة الآية 9، مثلما أمر قائلا: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي**

المنارة للاستشارات

ونُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنعام الآية 162، وفي هذا عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين، وحث على الخشوع فيها فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ سورة النور الآية 2؛ لذلك أمر بتأديتها بحقها وإقامتها بتمامها وكمالها فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ سورة النساء الآية 103، كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ سورة الإسراء الآية 110، وحرص على تأديتها باجتناب ما يُذهب الخشوع فيها والخضوع فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ سورة النساء الآية 43، وأكّد المحافظة عليها . كذلك . أكثر من مرة في القرآن الكريم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ سورة المؤمنون الآية 9، وقال: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ سورة الأنعام الآية 92، وقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ سورة البقرة الآية 238، وحدّد أوقاتها فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ سورة الإسراء الآية 78، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ سورة هود الآية 114.

فإذا ما نظرنا إلى قوله تعالى وجدنا أنّ تفاعل المتلقي مع الخطاب كان تفاعلا إيجابيا، يعزز من أهميّة التخاطب من خلال عملية ملء الفجوات التي سكت عنها التشريع الرباني، وأوكل مهمتها لمتلق خبير يسعى باستمرار، بما يمتلك من معطيات، إلى إخصاب مضامين النصوص، وتوسيع دائرة المعلومات التي تنطوي عليها،[22] هادفا إلى اعتبار الخطاب وثيقة للأوامر والنواهي التي تلامس

المنارة للاستشارات

شغاف القلوب وصميم العقول وتهدي إلى الرشد، وقد نقلتها اللغة بصدق خالص وتوقيع بديع، «فالكلمات هي التي تحرّك اليد بخدمة الفكر»[23] بتعبير ابن خلدون، وبهذا أمر الله في القرآن الكريم بالصلاة ولم يبيّن كيفياتها، ولا عدد ركعاتها، وإنّما رسم الخطوط العامة، وترك تفصيل ذلك للسنة النبوية، ولا أدل على ذلك من أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ سورة الواقعة الآية 74، قال . صلى الله عليه وسلم . : اجعلوها في ركوعكم، ولمّا نزل قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ سورة الأعلى الآية 1 قال: اجعلوها في سجودكم. لذلك لم تنته مهمة الرسول . صلى الله عليه وسلم . عند التبليغ بل تعاضدت مع مهمة باقي المتلقين يقول تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ*وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ سورة الشرح الآيتان 7-8، ليكمل مع الآخرين رحلة التخاطب المنفتح على الجماليات المتجددة، لا بتجدّد نوعية القراءات والقراء فحسب، بل بتجدّد رموز الخطاب وأنساقه وبنياته ومجموع ردود الأفعال المثارة فيه ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ سورة النور الآية 41.

ولمّا كان الأمر كذلك أصبح المتلقي يستشرف مثل هذه الجماليات المتتالية التي تعرض له وفق مذهب إعجازي يكتمل فيه التخاطب ويعظم، فقد سئل الرسول . صلى الله عليه وسلم . ما الإحسان؟ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ سورة النحل الآية 90، وقوله تعالى: ﴿**للذين أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ سورة يونس الآية 26، وقوله: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ سورة الرحمن الآية 60، قال: أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنّه يراك.[24]

إننا حينما نتحدث عن متلق يسعى إلى تحقيق حدث جليل، يمتد عبر الزمن من خلال أقوال تترجمها الأفعال وتجلو الغموض الذي يعتري مجموع المتلقين

المنارة للاستشارات

الخاضعين على الأقل للوقع الجمالي الكامن في الخطاب، نكون قد تحدثنا عن متلق مخبَر مقتدر عارف باللغة مستوعب لمكنوناتها ودلالاتها، ومتمرس لديه تراكم معرفي سابق، فيدرك عن علم ويقين الفروق الدقيقة بين التراكيب البليغة والأساليب البديعة التي تشكل جمالية الخطاب الذي تلّقاه، وبالتالي فنحن أمام متلق مخصوص بلغ مستواه الذروة العليا في تحقيق الغرض الأساسي من التخاطب مع خطاب حسبه أنّه معجز، ومثل هذا الخطاب لا يعرف معناه ولا درجة تفوّقه وتميّزه، لا يقدر أن يخوض فيه إلا إن كان مثاليا نموذجيا، يتكئ على الاستنباط والقياس في دقة وحذر، لئلا ينحرف عمّا ورد في الخطاب؛ أي يعطيه تأويلات وأبعادًا لا تتجاوز حدود ما فيه، فيضيف إلى الخطاب صحة وإيضاحا ينمّان عن مقدرته على «تلقي مراد الله تعالى من كلامه»،[25] بناء على أنّ الخطاب بجميع دلالاته وأسراره لن ينكشف إلا لذوي العلم المكين من أولي الألباب، الذين يرون أنّ مستوى التلقي الواعي لا بد أن يكون بنفس مستوى الخطاب، وإن كان هذا مطمحا محال الوصول إليه، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ سورة الكهف الآية 109.

وجدير بالذكر أنّ الوصول إلى المعنى النهائي أمر مستحيل بالنسبة إلى جميع هؤلاء المتلقين مهما كان نوعهم؛ لأنّه «يظل نسبيا لاعتماده على خصوصية أفق القارئ الفرد وزمانيته ومكانيته».[26] وإذا كان دور المتلقي النموذجي . كما أشرنا آنفا . يتجلى في قراءة القرآن وتدبره وكشف أسراره من خلال بنائه وأنساقه والعمل به في غير ما زيادة أو نقصان أو تحريف وتبديل، يقول تعالى: ﴿**وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ سورة يونس الآية 15، فإنّ هذا يشير إلى أنّه مقيّد بما يفرضه عليه الخطاب من أعراف لا يجوز له تخطيها، إذ «ما أمر الله عزّ وجل بالاعتبار، ولا حث على التدبر، ولا حرّك القلوب إلى الاستنباط، ولا

المنارة للاستشارات

حبّب إلى القلوب البحث في طلب المكنونات، إلا ليكون عباده حكماء ألبّاء أتقياء أذكياء، ولا أمر بالتسليم، ولا حظر الغلو والإفراط في التعمق، إلا ليكون عباده لاجئين إليه متوكلين عليه، معتصمين به، خائفين منه، راجين له، يدعونه خوفا وطمعا، ويعبدونه رغبا ورهبا، فبيّن ما بيّن حرصا على معرفته وعبادته، وطاعته وخدمته، وأخفى ما أخفى لتدوم حاجتهم إليه، ولا يقع الغنى عنه، وبالحاجة يقع الخضوع والتجرد، وبالاستغناء يَعْرِضُ التجبر والتمرّد»،[27] من أجل ذلك ملأ الرسول . صلى الله عليه وسلم . هذه الفجوة* المسكوت عنها في القرآن بقول صدّقه عمل، فقال «صلوا كما رأيتموني أصلي».[28] ومن هنا يستعين المتلقي العادي حين يعجز عن فهم الخطاب بالمتلقي المثالي من أهل الذكر مصداقا لقوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ سورة النحل الآية 43، فيتدخّل ليعينه على إيجاد الألفة مع غير المألوف؛[29] وذلك بطرح التساؤلات أولا لفك ألغازه، وتفسير آيات وقفوا عندها حائرين يتوسلون حكمتها، ثم يعمل على إثبات قيمة الخطاب من حيث معناه وما يحدثه من تأثير جمالي، ليتحول من متلق عادي مستهلك إلى متلق متمثل للخطاب، إيجابي ومنتج، يسهم بدوره في استحضار المفاهيم الضمنية وإيضاحها، على أن تكون له قابلية للتلقي والاكتساب، فيكون سببا في أن ينصهر داخل الخطاب ويستحكم فيه؛ ممّا يعني أنّه قد لا يحصر دوره في التلقي والفهم «والاستجابة المباشرة لمكونات وقعه، بل يتعدى ذلك خلق طاقة تفاعلية متطورة تكرّس قيمة العمل الفني من جهة وتبلور أجهزة مفسرة ومؤولة لهذا العمل من جهة ثانية».[30]

وقد يبقى على حاله؛ أي قارئا عاديا لا يتجاوز حدود المتلقي الممتثل لأوامره عزّ وجل، فإن تلقى أمرا نفذه والتزم به، وإن تلقى نهيا انتهى كأن يؤمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يؤمر بصلاة أو صيام أو صدقة... ونحو ذلك كقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ سورة البقرة الآية 280، أو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى**

المنارة للاستشارات

رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ سورة النساء 136، أو يجيء في عبارة **﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾** ما أمرنا الله وآمنا بكل ما جاء في كتابه العزيز، أو يجيء في صورة غير مباشرة ولكن فيها من دلالة الامتثال ما فيها، ومثالها قوله: **﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾** سورة التوبة الآية 112.

ولئن كان الخطاب القرآني قريبا من الأفهام وموجّها إلى العام والخاص، فإنّه يظل في شقه التفسيري والتأويلي خاصة محصورا في نوع مميز من المتلقين؛ إذ «لو كان القرآن ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر».[31] ومع ذلك يظل القرآن، وهو كلام الله المقدس، محافظا على حقّ المتلقي أيا كان نوعه، حيث أولاه عناية منقطعة النظير، فكان يحضّه دوما على تحقيق وجوده بتفعيل دوره عن طريق القراءة والتلاوة والتدبر والمداومة على الذكر، بالغدو والآصال أو طرفي النهار وزلفا من الليل...

لم تنحصر أنواع المتلقي عند هذه فحسب بل تنضاف إليها أنواع أخرى لا تقل قيمة عن التي سبق ذكرها منها المتلقي المستروح؛ إذ لم تتلق النفس الإنسانية الخطاب الرباني وهي مجرد جسد بمعزل عن الروح، ولا بوصفها عقلا من دون مشاعر، وإنّما بوصفها كلا مكتملا لا يمكن فصم عراه، فلا الروح تستطيع أن تحلّ محل الجسد، ولا العقل يستطيع أن يستغني عن المشاعر. وقد وجد المتلقي المستروح نفسه مسوقا إلى خطاب ربه، راغبا في الاستماع والإنصات، فتشدّه الآيات شدّا وكأنّما شيء ما يدعوه إلى أن يفتح دفتي المصحف لتعانق روحُه سرا خفيا، لا يستمل مع كثرة الرد، بناء على أنّ هذا النوع من المتلقي يبحث عن راحة لنفسه وصفاء لقلبه وأنس في خلوته، ولأنّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وإنّ الذكر جلاؤها، كما قال الرسول .

المنارة للاستشارات

صلى الله عليه وسلم . فكذلك «النفس تملّ، كما أنّ البدن يَكِلُّ؛ وكما أنّ البدن إذا كلَّ طلب الراحة، كذلك النفس إذا ملّت طلبت الرَّوْح»،[32] وراحت تنشده في الجمال الذي يتوارى فيه حب التواصل مع الله، لتجد متعة متجددة يستحيل ضبطها؛ ذلك أنّ النفس تقبل ما يشاكلها ويوائمها، ولهذا فهي تزداد سموا وطيبة كلما كانت أصفى وأنقى، وتزداد انحدارا واضمحلالا كلما كانت مكدرة خبيثة ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ *تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ*وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ*يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ سورة إبراهيم الآيات من 24 إلى 27.

إنّ المتلقي بوصفه قارئا أو سامعا أو مبلغا أو مخاطبا أو مرسلا إليه أو مقولا له... بحاجة إلى أن يعايش القرآن الكريم؛ لأنّه بعوز إلى أن يجعل حياته على فسحة من الجمال والسمو والروحانية، إنّه دوما يبحث عن مأوى يلوذ إليه لا في حالات انقباضه وأحزانه وإطباق الهموم عليه فقط، بل في ساعات الرخاء أيضا، ومثل ذلك ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ سورة الرعد الآية 28، أو من اتّسم بقلب لين منشرح غير قاس كقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ سورة الزمر الآية 22. والحقّ أنّه يفرّ من هموم الدنيا إلى الله مطيعا لأوامره ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ سورة الذاريات الآية 50، راغبا في ذلك من تلقاء نفسه ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ سورة طه الآية 84، أو قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم الخليل . عليه السلام : ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ سورة الصافات الآية 99 في راحة لا أسمى ولا أصفى منها.

المنارة للاستشارات

هكذا سادت وظيفة النزوع إلى الآخر؛ إن تحببا أو أمرا أو جهدا للوصل والتخاطب،[33] والصحيح أنّه بتواصله مع الله في كلّ أحواله؛ إن قائما وإن قاعدا وإن مستلقيا وإن ماشيا وإن راكبا... كما يتجلى هذا في قوله عزّ وجل: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ سورة السجدة الآية 16، وقوله: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ سورة آل عمران 191، قاصدا الإصغاء إلى سورة بعينها أو كلام بعينه، يريد من وراء هذا خلق جو من التخاطب، قد يدعوه إلى البحث عن التجديد والتغيير، فيفضي به إلى البكاء والخوف والرهبة في مواطن بعينها، أو إلى البسط والانشراح والأمان والرغبة في مواطن أخرى، فيرقّ قلبه وتذوب خشونته، ومن ثمة يقبل على العمل ويخلص النية... وما يعزز هذا قول . ربّ العزّة : ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ سورة الزمر الآية 23.

وقد يكون مقتنعا أو منفعلا أو قلقا أو خجلا كقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ سورة الحج الآية 35، وقوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ سورة الأنفال الآية 2، وقد يشعره الخطاب بالجمود فلا تهزه السورة أو الآية لخلل فيه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ سورة الزمر الآية 22، وقوله: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾ سورة النمل الآية 80، وقوله: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ سورة البقرة الآية171، وقد يزيد هذا المتلقي من تعنته وجحوده وكفره ونكرانه، ومن يتدبر

المنارة للاستشارات

هذه الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنفال الآية 31، يستشف ذلك جليا. وفي هذه الأثناء يكون المتلقي محمولا على الاسترسال، ويكون فيها المتلقي مكرها على الاستماع فقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ سورة نوح الآية 7، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ سورة المائدة الآية 67، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ سورة الأنفال الآية 24، كلّها آيات تشير إلى ذلك، على اعتبار أنّ الظاهرة التخاطبية عملية إخبار وإعلام تهتمّ بنقل الخبر من مخبِر إلى مخبَر، وتهتمّ بتوضيح الخبر المنقول والإبداع في التبليغ، وأحيانا حتى في الإلزام المادي والمعنوي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ سورة طه الآية 124، فإذا كانت الظاهرة التخاطبية على هذا النحو، فإنّه والحال هذه تظهر سيطرة الرسالة وهيمنة المبلِّغ ودونية المتلقي،[34] الذي يقع تحت سلطة المتكلم وكلامه، وهي سلطة لا تعني إلغاء أهميته في العملية التخاطبية في الخطاب القرآني؛ إذ لا شك أنّ افتتاحه بكلمة <اقرأ> يعني التأكيد على حضوره، بل على صلته الوثيقة بالتخاطب، فلا أحد يكتب أو يتكلم من دون حضور أو استحضار طرف آخر بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ سورة القمر الآية 17، بالإضافة إلى «أنّ ما علا يؤثّر ولا يقبل التأثير، وما سفل يتأثر»،[35] كذلك فإنّ هذا التخاطب قد يدعوه إلى البحث عن جمالية خاضعة لنظام معين يتماشى والمتلقي، إنّها أفعال إنجازية تصاحب القراءة أو بتعبير أوستن "أفعال إخبارية".[36]

المنارة للاستشارات

إنّ المتلقي بتواصله مع هذا النوع المميز من الخطابات يشير إلى حنينه إلى التواصل مع الله، ويعرض إخلاصه التام له، فيحصل على اللذة السرمدية، والصفاء المطلق، والجمالية العليا التي تلازمه حتى وهو يرتقي في السموات العلا، تاليا آيات الذكر الحكيم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي . صلى الله عليه وسلم . قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها»،[37] وعليه فبدايته تخاطب ونهايته تخاطب.

نعم.. إنّ هذا المتلقي يحسّ بخلوة حميمية بينه وبين من يقرأ له أو يناجيه ويدعوه، خاصة إذا كان المتكلم المبلِّغ هو الخالق العظيم، والمتلقي المبلَّغ هو المخلوق الضعيف وشتان بينهما؛ بين عظيم جليل وذليل متذلل، فكأنّ هذا المتلقي يشعر بعناية عظمى، فكيف لإله ذي الجبروت لا يحتاج إليه وهو [المتلقي] يحتاج إليه في كلّ أحواله وحركاته وسكناته لا يستغني عنه في صغائر أموره طرفة عين وهو يستغني، يخاطبه ويعيره اهتماما فسبحانه القائل: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ سورة العنكبوت الآية56، والقائل: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ سورة الزمر الآية 53، وهو القادر على أن يرزق مريم وغيرها ويتقبلهم قبولا حسنا كما تقبلها ﴿**رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ سورة آل عمران الآية 37، وهو الله الرحمن القادر على أن يبشّر عباده الصالحين بالذرية الصالحة، كما كان الشأن مع نبيّه زكرياء . عليه السلام . حين وهبه يَحْيَى . عليه السلام . فقال: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ سورة آل عمران الآية39، فهؤلاء وأمثالهم ممن كانوا يلجؤون إلى الله ويتضرعون إليه، ويعبدونه

المنارة للاستشارات

حق عبادة، ويتواصلون معه في السر والعلن، متقين الله شاكرين إحسانه وإنعامه، وما يؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ سورة الطور الآية 28، وهذا قول أهل الجنة الذين فهموا كنه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ سورة فاطر الآية 15، فاستجابوا لأمره تعالى، فهو سبحانه محمود في ذاته، مستحق للحمد، أهل للثناء، غير محتاج إلى شكر من شكر أو كفر من كفر؛ لأنّه غني مستغن عن العباد كلّهم أجمعين فهو جلّ جلاله القائل: ﴿**أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ سورة لقمان الآية 12.

ثمة إذا تواصل يقوم بين العبد وربه، وهو الذي حدا بالمتلقي إلى التوجّه نحو الخطاب القرآني ليبلغ منه غايته، وهكذا تصير جمالية التلقي نظرية توفيقية تجمع بين جمالية النص وجمالية تلقيه، استنادا إلى تجاوبات المتلقي وردود فعله، باعتباره عنصرا فاعلا وحيا، يقوم بينه وبين النص الجمالي تواصل وتفاعل فني، ينتج عنهما تأثر نفسي ودهشة انفعالية، ثم تفسير وتأويل، فحكم جمالي استنادا إلى موضوع جمالي ذي علاقة بالوعي الجمعي؛[38] لأنّ المتكلم كان يهدف إلى إيصال كلام غاية في الإنسانية، من أجل الإعراب عن جملة من القيم الجمالية العليا، مستندا في ذلك إلى شروط معينة يجب توافرها كالعقل المجرد في الإبلاغ والإيصال والتفهيم والإقناع، وكالقلب في التأثير بأساليب فنية وجمالية خاصة، تحكمها أصول مشتركة بين قطبي التخاطب المتكلم والمتلقي.

وفي حال إذا ما تلقّف المتلقي هذا الخطاب وفقا لهذه الشروط، تتحول القيم الجمالية التي أودعت في الخطاب إلى جماليات يصعب حصرها وقد يستحيل، وبالتالي فإنّ هذا التخاطب تحقق؛ لأنّه قام على نظام لغوي مشترك تمّت فيه مراعاة ظروف التخاطب والتخاطب، مع العلم بأن التخاطب مع الغير يجيء على شكل إثبات أو تساؤل أو طلب أو أمر من دون أن يتوقف ليكون تواصلا.[39]

المنارة للاستشارات

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-0464
المجلد1 ، العدد1، (جانفي2013) EISSN : 2600-6421

وإن نعجب فعجب أن نجد التخاطب على هذا النحو من الشمولية والتمام، وخصوصا عندما يتنوع الخطاب وتتنوع أحكامه تبعا لتنوعه، فهو يجعل جميع صنوف هؤلاء المتلقين قلوبا متوحدة في أجساد متفرقة، وأرواحا متعالقة في عقول متباينة، فهو يشدّ المتلقي فلا يزيغ عن الخطاب محتوى أو شكلا، أو محتوى وشكلا في آن معا. وإن رغب عنه فلعيب أو خلل موجود في المتلقي ناتج عن جحوده وتعنته، مع شدة إعجابه به وانبهاره في ذات الوقت، «فترى غير المتعلم يطرب للقرآن، ويجد فيه ما يرضيه، ونصف المتعلم يجد في القرآن ما يرضيه، والمتبحر في العلم يجد في القرآن إعجازا يرضيه»،[40] فكلّ فئة من هذه الفئات قد وجدت لنفسها موضعا داخل الخطاب في أوضاع متراوحة بين الإقبال والإدبار والتصديق والتكذيب... ومن خلالها . أي الفئات . كان الفعل التخاطبي خاضعا لنمطين من المتلقين؛ المؤمن والكافر.

فأما المتلقي المؤمن فهو يتصف بأنه محدد معين، غير مذكور باسمه، كقوله تعالى: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ سورة التوبة الآية 40، والصاحب هنا أبو بكر الصديق . رضي الله عنه . أو كقوله تعالى: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ**﴾ سورة يونس الآية 2، وهو هنا الرسول محمد . صلى الله عليه وسلم . وهو أيضا محدد معين غير مذكور باسمه، ولكّنه خاص جنسي ونوعي . وغير بعيد عن هذا قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ سورة آل عمران الآية 35، وقوله: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ سورة العنكبوت الآية 8، وقد نزلت في سعد بن أبي وقاص لما أسلم.

المنارة للاستشارات

وأنه محدد معين مذكور باسمه كقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ سورة آل عمران الآية 144، وكقوله سبحانه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ سورة الأحزاب الآية 37، فهو هنا خاص شخصي.

وأنه غير محدد، غير مذكور باسمه، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ سورة الفجر الآية 15، وهو هنا خاص جنسي وقوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ سورة النساء الآية 12، هو هنا خاص نوعي. وقد يكون مطلقا، كما هو الحال في هذه الآية. وقد يكون مقيدا مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ سورة سبأ الآية 9، وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ سورة الفتح الآية 25.

وأمّا المتلقي الكافر فيتصف بأنه محدد معين، مذكور باسمه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ سورة المسد الآية 1، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى

المنارة للاستشارات

الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة القصص الآية 38، فهو هنا خاص شخصي.

وأنه محدد معين، غير مذكور باسمه، مثل قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ سورة المسد الآية 4؛ وهي أم جميل زوج أبي لهب، وكذلك قوله: ﴿**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ سورة العنكبوت الآية 32، فهذا الصنف من المتلقي محدد معين غير مذكور باسمه، ولكنّه خاص جنسي ونوعي.

وأنه غير محدد غير مذكور باسمه كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾ سورة النبأ الآية 40، وكقوله عزّ من قائل: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ سورة الجن الآية 6، ففي هذه الآية ورد مطلقا غير مقيّد، مثلما ورد مقيّدا في قوله: ﴿**وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ**﴾ سورة البقرة الآية 221.

وما يؤكّد هذا أنّ النفس «جوهر لا عرض، وحد الجوهر أنّه قابل للأضداد من غير تغيّر، وهذا لازم للنفس؛ لأنّها تقبل العلم والجهل، والبر والفجور، والشجاعة والجبن، والعفة وضدَّها».[41] وقد بسط ابن الدباغ الحديث عن النفوس وأنواعها، وقسّمها إلى ثلاثة أقسام، ليدلل على أصناف من المتلقين جمعهم في قوله: «واعلم أنّ النفوس ثلاثة أقسام, نفوسٌ خُلِقت متيقّظة من ذاتها، مقبلة على بارئها بالفطرة، معرضة عن ما سواه؛ وهذه هي نفوس الأنبياء وخواص الأصفياء، أشرق عليها نور الحق فجذبها إليه، وتسمى مطمئنة. والقسم الثاني نفوس أعرضت بالكلية على الحق تعالى، وغلب عليها حبّ المحسوسات وشهوات الأجسام لاستيلاء الوهم عليها، فأنكرت اللذّات الروحانية والمدارك العقلية, وهذه هي نفوس الأشقياء, فهي محجوبة عن الله تعالى، مطرودة عن جنابه، ولا مطمع في نجاتها وتسمى الأمّارة. والقسم الثالث

المنارة للاستشارات

نفوس أقبلت على حبّ المحسوسات إقبالاً متوسطاً، ولم تستغرق فيها قوتها بالكلية، بل بقي في قوتها من اليقظة والفطنة ما تُدرِك به لذّة المعاني العقلية، وتطلب الفضائل، وتنفر عن الرذائل، فكان لها نظر إلى الجانب الأعلى بقدر ما فيها من اليقظة ونظر إلى الجنبة السفلى بقدر ميلها إلى حب الشهوات الطبيعية, وتسمى اللوّامة.

فهذه وإن كانت محجوبةً عن الحقائق الربانية يمكن أن تتذكّى بالرياضة، وتلحق برتبة السعداء, وهذا الصنف هم الذين وُضعت لهم مراتب السلوك, وإليهم قصدنا بهذا التنبيه, إذ الصنف الأول لا يحتاجون إلى سلوك، فإنّ الحق تعالى أرادهم، فاختصهم لعنايته, والصنف الثاني طُبعوا على الشقاء في أم الكتاب ولا تبديل لخلق الله، والصنف الثالث هم أصحاب الرياضة؛ لأنّ الأصل طهارة النفس وخلوصها من آثار الظلمة».[42] وهذا ما يعني أنّ مفهوم المتلقي بتعدده واختلافه عرف مفاهيم متنوعة ومتشعبة، إذن فهو أكثر استيعابا وأوفر تحصيلا لمفاهيم أكسبته تضخما دلاليا، لذلك يبدو تناوله كاملا أمرا مستحيلا.

وقصارى القول: إنّ هذا الخطاب الرباني في طرحه الإعجازي، لم يكن في مستوى تصور هؤلاء المتلقين جميعا، بالرغم من تباينهم، وتمايزهم، أو تفوقهم وتمكّنهم من فنون القول، أو إخلاصهم وتمثلهم للخطاب الذي قال عنه تبارك وتعالى: ﴿**قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ سورة الزمر الآية 28، إذ لما كان تفاعل المتلقي بالمتكلم تواصلا، وتفاعل المتلقي بالخطاب تأويلا، كان لابد من أن يكون الخطاب دالا على مبلِّغه وفي مستواه حتى يستقيم التخاطب ويتمكن في النفوس.

تمثل شمولية الخطاب من خلال قوله تعالى: ﴿**هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ سورة إبراهيم الآية 52، وجها من وجوه الإعجاز. كما أنّ "اقرأ" لم تكن خطابا محصورا في علاقته بين الله ورسوله محمد . صلى الله عليه وسلم . وإنّما امتدت العلاقة لتشمل «كلّ

المنارة للاستشارات

إنسان يفهم الخطاب من بعده»،[43] وبذلك فهو يمثل ظاهرة متعدّية تحيط بكلّ الفئات بمستوياتها المعرفية المتنوعة والمختلفة، وبتفاوت استعداداها لتلقي الخطاب؛ لأنّ «الإعجاز كحجة لا بد أن يكون في مستوى إدراك الجميع وإلا فاتت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم، ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين أن يكون فوق طاقة الجميع».[44] ولعل هذا ما يخوّل لنا أن نضع كل فئة ونوعية في مرتبة بعينها؛ ذلك أن الخطاب القرآني يقوم بها من منطلق قوله . صلى الله عليه وسلم . "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نُنْزِلَ الناس منازلهم، ونكلمَهم على قَدْرِ عقولهم".[45]

والحق أن هذا الخطاب الرباني على قداسته وعلوه استوجب النزول إلى كل الفئات من الناس، أنبياء ورسل، وعلماء راسخين في العلم وجاهلين، وحكام ومحكومين، وعرب وأعاجم، وفقراء وأغنياء، ومؤمنين وكافرين ومنافقين، وأتقياء وعصاة، وسعداء وأشقياء، ذكور وإناث... لذلك «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسّم أقدار الكلام إلى أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني إلى أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»؛[46] لأنّه بكل بساطة يتكلم ليفهم ويقول ليبين.

هوامش المقال:

- فولفجانج إيسر: فعل القراءة . نظرية في الاستجابة الجمالية . ترعبد الوهاب علوب المجلس الأعلى للثقافة 2000 ص ص 27 . 28

[2] - ينظر محمد العمري: البلاغة العربية . أصولها وامتدادها . أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب . بيروت . لبنان، 1999 ص 293

[3] - عبد الرحيم محمد الهبيل: فلسفة الجمال في البلاغة العربية . الدار العربية للنشر والتوزيع . مدينة نصر . مصر، ط 1، 2004 ص 28

[4] - H . R. Jauss : Pour une esthétique de la réception _ Gallimard _ Paris ; 1978 p 45

[5] - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تحق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي . القاهرة (د.ت) ص 250

المنارة للاستشارات

[6] - ينظر المقريزي: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، تصحيح وشرح محمود محمد شاكر. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1941ص 15

[7] - ميجان الرويلي . سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي . إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا . المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب بيروت لبنان ط 2، 2000 ص 181

[*] اختلف أهل العلم في الخطاب الذي يشير النص فيه إلى اختصاص الرسول . صلى الله عليه وسلم . به، هل هو خاص به وحده أو هو يتناول أمته أيضا؟ فمن قائل: إنّ الخطاب يظل على خصوصيته، ولا يتناول الأمة، وهو قول الجمهور. ومن قائل: إنّ الخطاب يتناول الأمة، لأنّ الرسول . صلى الله عليه وسلم . قدوة لها، فخطابه خطاب لأمته، إلا ما قام الدليل على خصوصه به . عليه الصلاة والسلام . وقد جاء القرآن مؤيدا لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ سورة الطلاق . الآية1، فلو كان الخطاب خاصا لقال تعالى:"إذا طلقت النساء". وهذا قول أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وإن جاز لنا أن ننظر إليها على أنّ المراد من الجمع فيها التشريف والتعظيم، كما يرى كثير من المفسرين كابن كثير والقرطبي والسيوطي. كما اختلفوا في جمع المذكر السالم فقال الجمهور: إنّه لا يتناول الإناث بدليل استخدام القرآن ألفاظ "المسلمين" و"المسلمات" و"المؤمنين" و"المؤمنات"، فلو كان المدلول واحدا لما فرق بينهما. وقال الحنابلة وبعض الظاهرية: يتناول الفريقين، الرجال والنساء، لأنّ أغلب أوامر الشرع ونواهيه قد وردت بصيغة الجمع المذكر. وتساءل بعض العلماء عن خطاب المشافهة، إذا كان موجها إلى مخاطبين حاضرين في زمن الخطاب: هل يعم غير الحاضرين؟ فذهب الجمهور إلى أنّ الخطاب الخاص بالحاضرين لا يتناول غير الحاضرين، ويحتاج شمولهم إلى دليل آخر. وذهب الحنابلة وبعض الفقهاء إلى أنّ الخطاب يعمّ الجميع سواء في زمن الخطاب أو بعده. ينظر نخبة من العلماء: قاموس القرآن الكريم . المدخل . مؤسسة الكويت للتقدم العلمي . الكويت . ط1 1992 ص 197 وما بعدها.

[8] - ينظر محمد مفتاح: النص . من القراءة إلى التنظير . شركة النشر والتوزيع . المدارس . الدار البيضاء، ط1 2000 ص 57

[9] - ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب، تر حميد الحمداني . دار سال . المغرب، ط1 . 1993 ص 35

[10] - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي . (د ت) ج 3 ص 127

[11] - حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . المغرب، بيروت . لبنان، ط1، 2005 ص 16

[*] وقد سمي الدين فطرة، لأنّ الناس خلقوا له وعلى مبدأ التوحيد.

[**] وهذا بغض النظر عن الطريق الذي سلكه.

[12] - ينظر فرجينيا وولف: القارئ العادي . مقالات في النقد الأدبي . ترعقيلة رمضان، مراجعة سهير القلماوي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر 1971 ص 7

[13] - ينظر أبو عبيدة: مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلّق عليه محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة . مصر . ط 2، 1981 ج1 ص 8

[14] - ينظر ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري البصري): السيرة النبوية، تحق طه عبد الرؤوف سعد . دار الجيل . بيروت . المجلد الأول ج2 ص ص 156 .157

المنارة للاستشارات

15 - التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، صححه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية . بيروت . 1953 ج1 ص 205

16 - Paul Ricœur : Du texte à l'action p 36

17 - آ.أي.ريتشاردز: مبادئ النقد الأدبي . دراسة أدبية . ترإبراهيم الشهاني . منشورات وزارة الثقافة . سورية 2002 ص 206

18 - البخاري: صحيح البخاري

19 - ينظر يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، شركة الشهاب، الجزائر ص 55

20 - للاستزادة ينظر جيلالي الكدية: تأويل النص الأدبي . نظريات ومناقشات ضمن "من قضايا التلقي والتأويل" سلسلة ندوات ومناظرات رقم 36، 1995 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس . الرباط . المغرب، مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء ط 1، 1994 ص 42

21 - ينظر فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع . الدار البيضاء . المغرب، ط 1، 1987 ص 102

22 - ينظر إدريس بلمليح: القراءة التفاعلية . دراسات لنصوص شعرية حديثة . دار توبقال للنشر. الدار البيضاء . المغرب ط 1، 2000 ص 7

23 - ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني . بيروت . ط2، 1979ص 70

24 - مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، ص 26

25 - السكاكي: مفتاح العلوم، تحق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية . بيروت . 1983 ص 7

26 - ميجان الرويلي . سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي . إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا . ص 52

27 - التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ج 2 ص 21

* الفجوة هنا لا تعني وجود نقص أو خلل وإنما هي مساحة واسعة تولى الذي لا ينطق عن الهوى الإفصاح عن المسكوت عنه وتفسيره وبيانه وتفصيله للقاصي والداني كما ينبغي أن يكون؛ لأن القرآن نزل كاملا تاما.

28 - البخاري: صحيح البخاري . ص 159

29 - ينظر فولفجانج إيسر: فعل القراءة . نظرية في الاستجابة الجمالية . ص 47

30 - إدريس بلمليح: القراءة التفاعلية . دراسات لنصوص شعرية حديثة . ص 55

31 - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): تأويل مشكل القرآن، شرح وتحق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية . مصر. ط 1، 1954 ص 62

32 - التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ج1 ص 27

33 - للاستزادة ينظر ميجان الرويلي . سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي . إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا . ص 39

34 - ينظر الملاخ : مفاهيم في التواصل، تاريخ النشر02022005 http:www.aljamaa.comarindex.asp ص 1

35 - التوحيدي: الإمتاع و المؤانسة ج 1 ص 213

36 - أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر و التوزيع . الدار البيضاء . المغرب ط 1، 1987 ص 80

المنارة للاستشارات

[37] - النووي (محي الدين يحي بن شرف): منهل الواردين شرح رياض الصالحين، ضبط و وضع صبحي الصالح دار العلم للملايين . بيروت ط 1 . 1970 ص 598

[38] - حميد سمير: النص و تفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري . دراسة . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . 2005 ص 17

-[39] André Martinet : La linguistique synchronique – presses universitaire de France -1974 p 9

[40] - الشعراوي محمد متولي: معجزة القرآن الكريم، دار الخياط للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق . ط1، 2005 ص 24

[41] - التوحيدي: الإمتاع و المؤانسة ج1 ص ص 200 - 201

[42] - ابن الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد): مشارق أنوار القلوب ومفتاح أسرار الغيوب، دار صادر. بيروت . 1959، ص 10

[43] - يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، شركة الشهاب . الجزائر. 1977 ص 60

[44] - مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، تر عبد الصبور شاهين، تقديم محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر، دار الفكر. دمشق . 1981 ص 64

[45] - صحيح مسلم . المقدمة ص 5

[46] - الجاحظ: البيان و التبيين، تحق عبد السلام هارون، دار الجيل . بيروت . 1948 ج 1 ص ص 138 .

المنارة للاستشارات